EISSN 2588-2333 ﴿التـواصل الأدبي﴾ ISSN 1112-7597
المجلد:12/ العدد: 01 العدد التسلسلي: 20 - جانفي 2023

# منهج المستشرق الفرنسي (أندريه ميكال) في التأريخ للأدب العربيّ

# The Approach of the French Orientalist (Andre Michal) in Chronicling the Arabic Literature

د/ عيسى بن سعيد بن عيسى الحوقاني

أستاذ مساعد/جامعة نزوى . سلطنة عمان

(alhuqani@unizwa.edu.om)

تاريخ الإرسال: 2022-04-21 تاريخ القبول: 2022-09-20 تاريخ النّشر: 2023-01-01

**الملخّص:**

تباينت مواقف الدارسين حول الاستشراق بين مؤيد له متحمسٍ لكلّ توجّهاته، ورافضٍ له معارضٍ جملةً وتفصيلًا لأطروحاته، وبين الموقفين توجّهٌ وسطيٌّ لا ينكر أنّ للاستشراق تأثيرًا قد يكون إيجابيًّا أو سلبيًّا، وقد أولتْ الدراسات السابقة شيئًا من الاهتمام بدراسة مناهج المستشرقين المتقدمين في التأريخ للأدب العربيّ منذ المستشرق الألمانيّ (كارل بروكلمان – Carl Brockelmann)، إلّا أنّ مناهج المستشرقين المتأخرين في التأريخ للأدب العربيّ لم تنل – حسب اطلاعنا– شيئًا من الاهتمام، على الرغم من أنّها جديرة بالدراسة لما فيها من توجهاتٍ منهجيّة تختلف عن منهجيّة المتقدمين، ولتأطير الدراسة ارتأينا الاقتصار على دراسة منهجٍ واحدٍ من مناهج المستشرقين المتأخرين.

وقد اخترنا لدراستنا أنْ تُعنى بمنهج المستشرق الفرنسيّ (أندريه ميكال – Andre Miquel) في كتابه (الأدب العربيّ) وتتمثّل الإشكاليّة في جملة من الأسئلة المشرعة تتعلق بمنهجه، فما المنطلقات الفلسفيّة التي انطلق منها؟ وما أوجه الاختلاف بينه وبين من تقدّمه من المستشرقين؟ وما إشكاليّات تطبيق منهجه في تأريخه للأدب العربي؟

**الكلمات المفتاحيّة:** التأريخ للأدب، الاستشراق، . أندريه ميكال.

## Abstract:

The positions of scholars on orientalism has been varied; some people supports its orientations, while others completely reject it. And between the two positions, there is a moderate orientation which confirms that orientalism has an impact which may be positive or negative. Some attention have been devoted to study the methods of advanced orientalists in chronolizing the Arabic literature started by the

German orientalist, Karl Brockelmann. However, according to our knowledge, the later orientalists' approaches in chronolizing the Arabic literature was not given any interest despite the fact that it is worthy of study because of its methodological orientations that differ from the forerunners' methodology.

Thus, in order to frame the study, it has been decided to study one of the methods of the late orientalists only. This study has selected the method of the French orientalist, Andre Miquel, in his book named 'Arabic Literature'. There are several questions related to his method such as; what are the philosophical premises from which he proceeded? What are the differences between him and the orientalists who preceded him? And what are the problems of applying his method in chronolizing the Arabic literature?

**Key words:** chronolizing literature, orientalism, Andre Miquel.

**المقدمة:**

إنّ للمستشرقين أعمالًا كثيرةً، في مجالاتٍ متنوعةٍ تتعلق بالعلوم العربيّة والإسلاميّة، منها التدريس فلا تكاد الجامعات الأوروبية والأمريكيّة تخلو من معهد خاص للدراسات الإسلاميّة والعربيّة، كما اهتمَّ المستشرقون منذ زمن طويل بجمع المخطوطات العربيّة، وحفظها وصيانتها ووضعوا لها الفهارس لتسهيل الانتفاع بها، بل قاموا بتحقيق عيون التراث العربيّ وطباعته ونشره، وترجمة مئات الكتب العربيّة إلى اللغات الأوروبيّة، كما أنّهم أرّخوا للأدب العربيّ، بل للإنصاف كانوا أوّل من كتب تاريخًا للأدب العربيّ.

وانطلق المستشرقون في تأريخهم للأدب العربيّ من ذلك "الفكر التجريبيّ والتدقيقيّ الفقه لغويّ، والتنظيميّ والتراتبيّ الذي عُرف به فكر القرن التاسع عشر في أوربا، والذي طبّق على تاريخ الأدب الأوربيّ نفسه"[(1)] فكانت لهم محاولاتٌ في تنظيم الأدب العربيّ ودراسة تطوّره وفق تسلسل زمنيّ، إلّا أنّ ذلك التسلسل الذي وضعوه كان – في الغالب– مرتبطًا بالتقلُّبات السياسيّة، وتاريخ الأسر الحاكمة.

يشير المستشرق الألمانيّ "كارل بروكلمان"(Carl Brockelmann) في كتابه "تاريخ الأدب العربيّ" إلى أنّ "أول من قام بالمحاولة الأولى، لتقديم تاريخ للأدب العربيّ في عرض كامل، هو: يوسف هامّر يورجستال"[(2)] وعلى الرغم من أنّها المحاولة الأولى فالكتاب يتصف بالضخامة والاتّساع، لكن الانتفاع به اليوم يتطلب الحذر الكبير؛ لأنّ أهم مصادر تأريخ الأدب العربيّ في زمانه لم تكن معروفة، فمازالت إلى يومنا هذا مخطوطات مبعثرة متفرقة لم تنل حظًّا من التصنيف والفهرسة والتحقيق والنشر، كما أنّ الرجل لم يكن على علمٍ كافٍ باللغة العربيّة[(3)] وإذا كان الانتفاع بكتاب يورجستال لم يعد ممكنا إلا بحذر كبير "فمثل ذلك يقال في كتاب أربتنوت، المتّسم بالإيجاز المخِل"[(4)].

واستمر اهتمام المستشرقين بعد (بروكلمان) بالتأليف في تاريخ الأدب العربيّ فظهرت كتب كثيرة تتفاوت بين الشمول والخصوص، وبين الاتّساع والإيجاز، وبين التقليد والتجديد. ومن هذه الكتب "تاريخ الأدب العربيّ" للمستشرق الفرنسيّ "ريجيس بلاشير"[(5)] (Regis Blachere) إذ حاول "بلاشير" إعادة تقسيم عصور الأدب العربي على أساس ثقافيّ إلى خمسة عصور، وعلى الأساس الثقافي ذاته قدّم المستشرق الفرنسي "أندريه ميكال (Andr Miquel) رؤيته في تقسيم[(6)] الأدب العربيّ بعيدًا عن العامل السياسيّ في كتابه "الأدب العربيّ".

إن كتاب (ميكال) في التأريخ للأدب العربي جدير بالدراسة لنتبيّن منطلقاته ومنهجه وإشكاليّات تطبيق ذلك المنهج في التأريخ للأدب العربيّ، واقتضت حيثيات الدراسة قسمتها إلى مقدمة وأربعة محاور على النحو الآتي:

- التعريف بـ (أندريه ميكال) وكتابه (الأدب العربيّ).
- المنطلقات الفلسفيّة لـ (أندريه ميكال) في تأريخ الأدب العربيّ
- منهج (أندريه ميكال) في تحقيب الأدب العربيّ.

- إشكاليّات تطبيق منهج (أندريه ميكال) في تأريخه للأدب العربي.

**المحور الأول: التعريف بـ (أندريه ميكال) وكتابه (الأدب العربيّ).**

أندريه ميكال (Andr Miquel) مستشرقٌ فرنسيّ ولد في جنوب فرنسا عام 1929م، وقد حل على الدكتوراه في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، و كانت دراسته بمدرسة المعلمين العليا، ودرس اللغة العربيّة وآدابها على يد المستشرق الفرنسيّ بلاشير، كان بعد تخرجه على اتّصال مباشرٍ بالمشرق العربيّ إذ عمل في بالمعهد الفرنسي للدراسات العربيّة في كلٍّ من دمشق وبيروت، وفي أواسط الخمسينيّات عمل في إثيوبيا لمدة عامين، ثم عاد إلى فرنسا موظفًا في وزارة الخارجيّة، وما لبث أن عاد إلى المشرق العربيّ عام 1961م ليعمل مستشارًا ثقافيًا لفرنسا في مصر.

عاد أندريه ميكال (Andr Miquel) إلى فرنسا ليتولى تدريس الأدب العربيّ في جامعاتها منذ عام 1968م، إذ عمل في جامعة فانسان Vincent، وجامعة السربون الجديدة La Sorbonne Nouvelle، وشغل بعد ذلك منصب مدير معهد لغات الهند والشرق وشمال إفريقيا وحضاراتها في جامعة باريس الثالثة، ثم تم اختياره أستاذًا لكرسيّ الأدب العربيّ في الكوليج دي فرانس عام 1975م، وفي 1984 عام صار مديرًا للمكتبة الوطنيّة في باريس، ويعدّ بذلك أول متخصصٍ في الدراسات العربيّة والإسلاميّة يشغل هذا المنصب الرفيع.

عاد أندريه ميكال (Andr Miquel) عام 1986م إلى الكوليج دي فرانس، وصار رئيسًا لها عام 1989م، وفي هذه الرحلة العلميّة واصل نتاجه العلميّ المتصل بالأدب العربيّ بنشر الترجمات المتخصصة المقدمة للمثقف العام، وبإلقاء المحاضرات باللغة العربيّة في الجامعات العربيّة، وبالإشراف على الرسائل العلميّة للدارسين العرب في الجامعات الفرنسيّة.

ومن أهم مؤلفات أندريه ميكال (Andr Miquel) كتاب (الإسلام وحضارته . L'islam et sa civilization) وقد نشر عام 1968، وترجم إلى عددٍ من اللغات الأوروبيّة، وكتاب (الأدب العربيّ-La littérature arabe) انتشر في فرنسا ثم عرّب في تونس على يد رفيق بن ونّاس، وصالح حيزم، والطيّب عشاش، ولميكال كتاب (سبع حكايات من ألف ليلة وليلة- Sept Contes des Mille et Une Nuit )، وترجم من العربيّة إلى الفرنسيّة (قصة عجيب وغريب) من قصص ألف ليلة وليلة ودرسها دراسةً تحليليّة، وترجم إلى الفرنسيّة كذلك قصة (ليلى والمجنون)، وترجم إلى الفرنسيّة ديوان (المعبد الغريق) لبدر شاكر السيّاب.

وليس مطلبنا الوقوف على جميع مؤلفات (أندريه ميكال) وإنّما تقتصر عنايتنا بكتابه (الأدب العربيّ) فمن خلاله ندرس منهجه في التأريخ للأدب العربيّ، وقد ألّف (ميكال) هذا الكتاب "لما كان سنة 1969 يدرّس صحبة المأسوف عليه ر. بلاشير Feu R. Blachere بأحد فروع جامعة السربون".(7)

ويخالف (أندريه ميكال) منهج (بروكلمان) وذلك لأنّ (بروكلمان) في تعامله مع الأدب "ينظر إليه نظرة جد واسعة، لا فحسب الآثار التي يمكن بحق أن ننعتها بالأدبيّة بل مجموع الإنتاج المكتوب"(8) أمّا كتاب (أندريه ميكال) "فهو أصغر . وعن قصد . سيهتم بالأدب في معناه الأشهر والأدق"(9) وقد حاول (أندريه ميكال) في كتابه أن يقدّم رؤية جديدة في تقسيم الأدب العربيّ بعيدا عن العامل السياسيّ، ويتكون الكتاب من (142 صفحة) من القطع الصغير ويشتمل على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

جاءت المقدمة مختصرة في ثلاث صفحات، تناول فيها سعة الأدب العربيّ وفضل (بروكلمان) في حصره، وبيّن مقصده من التأليف مؤكّدًا بأن كتابه يُعنى "بالأدب في معناه الأشهر والأدق"(10) وأثار في مقدّمته جملةً من التساؤلات.

الفصل الأول: تناول فيه العصر الأدبيّ الأول الذي يطلق عليه (أدب الفاتح) ويبدأ من الجاهلية إلى قيام الدولة العباسية، أي فترة انتشار الإسلام واستقرار العرب في عدد من الأقطار المفتوحة، فانتشرت لغتهم وأدبهم وحافظوا على السمات التقليدية لكونهم المنتصرين.

الفصل الثاني: تناول فيه العصر الأدبي الثاني الذي يُطلق عليه (أدب الالتقاءات) وهو عصر الدولة العباسية، وفيه تلتقي الثقافة العربية الأصلية مع الثقافات الأخرى من يونانية وفارسية وهندية وغيرها.

الفصل الثالث: تناول فيه العصر الأدبيّ الثالث الذي أطلق عليه (أدب الذكرى)، ويبدأ من سقوط بغداد، ويقتصر على حفظ التراث وجمعه في موسوعات مختلفة.

الفصل الرابع: تناول فيه العصر الأدبيّ الرابع الذي أطلق عليه (أدب النهضة)، وهو عصر الاصطدام مع الغرب، واكتشاف عالم جديد.

الخاتمة: تناول فيها قضيتين: الأولى كيفية تحقيق مقتضيات الحداثة دون قطع الصلة بأسس الأصالة، والأخرى قضيّة الاختيارات الأدبيّة المعاصرة المتمثلة في الرواية التي صارت الصورة الأساسيّة للكتابة اليوم.

**المحور الثاني: المنطلقات الفلسفيّة لـ (أندريه ميكال) في تأريخ الأدب العربيّ:**

ينطلق (أندريه ميكال) في تأريخ الأدب العربيّ من النظريّة الثقافيّة التي تنظر إلى الأدب على أنّه" ثمرة من ثمرات الثقافة تتبلور فيه طائفة من المشاعر والأفكار وتصطلح عليه مجموعة من التصوّرات والأخيلة، فيتحدّث عنها ويؤدّيها في صورة من صور الأداء النثريّ أو الشعريّ"(11) أما الأديب فهو "خلاصة تنبئ عمّا يكمن وراءها من ألوان الثقافة"(12) أمّا مهمة دارس الأدب حسب هذه النظريّة فتتمثّل

في تحليل الآثار الأدبيّة وتمييز العناصر الثقافيّة التي أسهمت في تكوينها، وردّها إلى أصولها التي صدرت عنها.

والأدب العربيّ حسب هذه النظريّة ثمرةٌ لثقافاتٍ كثيرةٍ احتضنتها الحضارة الإسلاميّة، كالثقافة اليونانيّة والفارسيّة والهنديّة والرومانيّة والتركيّة، فهذه الثقافات كلّها أسهمت في تكوين العقل العربيّ، وتركت فيه آثارها ظاهرةً تارةً وباطنةً تارةً أخرى، فقد كانت للأدب العربيّ خصائصه البدويّة حيث كان حبيس الجزيرة العربيّة ومشارف الشام والعراق، إلّا أنّ هذه الخصائص ما لبثت أن تغيّرت أو تطوّرت أو أضيفت إليها خصائص أخرى باختلاط العرب بالثقافات الأخرى، فارتدى النثر ثوبًا جديدًا مع عبد الحميد الكاتب وابن المقفّع، وارتدى الشعر ثوبًا جديدًا مع بشار وأبي نواس، ويرى شكري فيصل أنّ آثار الجاحظ تمثّل امتزاج ثلاث ثقافات هي: العربيّة والفارسيّة واليونانيّة، وأنّ نزعات الزهد عند الشعراء العرب ما هي إلّا تمازج النظرة الإسلاميّة الفطريّة بالنظرة الصوفيّة المعقّدة في الأفلاطونيّة الجديدة.

وبما أنّ أثر الثقافات الأخرى لا يتجلى إلّا بدراسة الإنتاج الأدبيّ وتحليله فإن "دراسة الأدب العربيّ وتأريخه تأريخًا صحيحًا إنّما هي . في عُرف هذه النظريّة . ردّه إلى هذه التيّارات التي ساعدت على تكوينه، وحسبنا أن نتبيّن أثر هذه الثقافات عند الكتّاب والشعراء، والخطباء حتى نظفر بالدراسة الخصبة والتأريخ الصحيح"،[13] ويمكن رصد أثر الثقافات الأخرى في الأدب العربيّ بصورة عامة، كما يمكن رصد ذلك الأثر في كلّ فنّ على حدة، كأن يرصد المؤرّخ تطوّر غرض من الأغراض الشعريّة؛ فيتتبّع آثار الثقافات المتعدّدة على ذلك الغرض، وبظهور أثر ثقافيّ جديد تنتهي حقبة أدبيّة لتبدأ حقبة جديدة، ولا يعني ذلك أنّ وجود أثر ثقافة فارسيّة أو يونانيّة أو أوروبيّة عند أديب من الأدباء ظهور حقبة أدبيّة جديدة،

وإنّما تُعنى هذه النظريّة بالتيّارات الثقافيّة الكبرى التي يكون أثرها في إنتاج معظم أدباء ذلك الزمان حتى تمثّل حقبة أدبيّة جديدة.

وتسعى النظريّة الثقافية أن تكون تفسيرًا للأدب وأساسًا في تأريخه ودراسته، وعلى هذا لن تكون مهمّة مؤرّخ الأدب على وفق هذه النظريّة محصورةً في رصد الظواهر الأدبيّة وتسجيلها وإبراز خصائص العصور الأدبيّة من خلالها، بل عليه أن يردّ تلك الظواهر إلى أصولها الثقافيّة الأولى التي نبتت منها، ويدرس الآثار التي تركتها تلك الثقافات في الأدب العربيّ، وكيف أغنت الألفاظ، وأثرت المعاني، ولوّنت الأساليب، واستحدثت الموضوعات والفنون والأغراض، كما يبيّن أثر تلك الثقافات في الفكر العربي بشكل عام.

ويرى شكري فيصل أنّ للنظريّة الثقافيّة أصلًا تقليديًّا في تراثنا العربيّ إذ "تجد بذورها الأولى فيما تواضع عليه أصحاب كتب التراجم حين يترجمون للعلماء والأدباء"[14] ففي الترجمة يرد ذكر الشيوخ الذين قرأ عليهم كلّ أديب أو روى عنهم أو سمع منهم، وربّما وردت إشارة إلى لغة يتقنها أو علوم له دراية بها كالطب أو الفلسفة أو الفلك، كما قدُ يشار إلى رحلات الأديب وتنقّلاته، فأصحاب التراجم بكتابتهم عن الأدباء وفق هذا المنهج "كأنّما يحدّدون مصادر الثقافة التي أخذوا عنها، وينابيع المعرفة التي اغترفوا منها، فكانت شخصيّتهم العلميّة أثرًا من تمازجها واختلاطها"[15] فتطبيق النظريّة الثقافيّة في العصر الحديث ما هو إلّا تمثّل لنهج أصحاب التراجم في شيء من التوسّع حسب شكري فيصل إذ يرى أنّ "الذي كان يفعله القدماء لا يغفله المحدثون، بل هم يفعلون مثله في شيء من التوسّع والتدقيق".[16]

إنّ محاولة إيجاد جذورٍ تربط النظريّة الثقافيّة بمنهج أصحاب التراجم، أمرٌ لا يمكن التسليم به، فمحاولة المقاربة بينهما أشبه ما تكون بالمقاربة بين السطح

والعمق، فلم يكن اهتمام أصحاب التراجم بتأريخ الأدب، بل كان اهتمامهم بشخصيّة الأديب ومعرفة نسبه والعلوم التي تحصّل عليها والأمراء الذين اتّصل بهم وما إلى ذلك، بينما ترتكز النظريّة الثقافية في تأريخ الأدب على تتبّع الأدب زمانيًّا حسب التغيّرات الثقافيّة التي تُحدث تأثيرًا في سير الحركة الأدبيّة، فدخول تأثير ثقافيّ جديد على الأدب يعني انتهاء حقبة أدبيّة وبداية حقبة جديدة، ولم يكن هذا شأن كتب التراجم، فتصوير شكري فيصل للنظريّة الثقافيّة على أنّها امتداد لجذور كتب التراجم ضربٌ من التكلّف في تحميل تلك المؤلّفات ما لا تحتمله.

وإذا رصدنا النظريّة الثقافيّة في كتب تاريخ الأدب؛ فإننا لا نعثر على مؤرّخ تبنّى تطبيق هذه النظريّة تطبيقًا كاملًا في تأريخه للأدب العربيّ، وإن كانت هناك إشارات لآثار الثقافات الأخرى في الأدب عند بعض المؤرّخين، إلّا أنّ تلك الإشارات لا تعني أنّ أولئك المؤرخين قد تمثّلوا هذه النظريّة في تأريخ للأدب العربيّ.

ويرى شكري فيصل أنّ هناك صورًا تطبيقيّة للنظريّة الثقافيّة عند مؤرّخين عرب ظهرت في دراسات جزئيّة قصيرة، كدراسة طه حسين للبيان العربي فيّ مقدّمة كتابه "نقد النثر"، ودراسة أحمد أمين لابن المقفّع في الجزء الأول من كتابه "ضحى الإسلام" إذ يرى أن دراسة كلّ من طه حسين وأحمد أمين تطبيق للنظريّة الثقافية، ويؤكّد أنّ أحمد أمين "يتحدّث عن ابن المقفّع على غير ما يتحدّث به عنه مؤرّخو الأدب، وانتهى إلى نتائج لم يكن لهم أن ينتهوا إليها، واستطاع الدكتور طه أن يكشف عن أثر اليونان في علم البيان وعن مراحل هذا التأثّر وعن الكتّاب الذين حملوا لواءه وشقّوا سبيله، ووفّق إلى أن يرصد في نشأة هذا العلم وفي تطوّره بعض الخطوات رصدًا لا يتأتّى عن غير تطبيق النظرة الثقافيّة في دراسة الأدب العربيّ"(17) إلّا أنّنا إذا سلّمنا بأنّ الرجلين قد طبّقا النظريّة الثقافيّة فإنّما هو تطبيق جزئيّ، إذ إنّهما لم يتّخذا التغيّرات الثقافيّة التي دخلت على الأدب أساسًا لبداية الحقبة الأدبيّة

ونهايتها، فقد كانت نظريّة ديكارت منطلق طه حسين في تأريخه للأدب العربيّ، أمّا التحقيب الثلاثي الذي انتهجه أحمد أمين: "فجر الإسلام"، و"ضحى الإسلام"، و"ظهر الإسلام" فما هو إلّا تحقيب سياسيّ وإنْ حمل دلالة رمزيّة، فلا يوجد من المؤرّخين العرب ـ حسب اطّلاعنا ـ مَن اعتمد النظريّة الثقافيّة أساسًا لتحقيب الأدب العربيّ، إلّا أنّنا نجد ذلك فيما كتبه المستشرق الفرنسيّ (أندريه ميكال) إذ اعتمد منطلقات النظريّة الثقافية في تأريخه للأدب العربيّ وسيتضح ذلك بشكل جليّ في تناولنا لمنهجه في كتابه (الأدب العربيّ).

## المحور الثالث: منهج (أندريه ميكال) في تحقيب الأدب العربيّ:

قسّم المستشرق الفرنسيّ (أندريه ميكال) الأدب العربيّ إلى أربعة عصور يغلب عليها الأساس الثقافيّ، ويبدو أنّ (ميكال) كان مدركًا لإشكاليّة مصطلح "الأدب العربيّ" فقال متسائلًا: "ما المقصود الآن بلفظ العربيّ؟ لا، وهذا واضح،[18] تحديد جنس الكتاب، وهو تحديد فيه مجازفة فنصيب ذلك من الصحة يكون أضعف لا سيّما أنّ اللغة العربيّة هي ناقلة دين ينزع إلى العالميّة أي الإسلام وهو تجمّع أمم مختلفة، وجدت نفسها تُوهب إلى جانب عقيدة مشتركة لغة اعتبرت مثاليّة".[19]

إنّ وصف الأدب بأنّه عربيّ لا يعني بأي حال أنّ الأدباء الذين أنتجوه عرب، لأنّ الإسلام جعل من اللغة العربيّة لغة عالميّة فاختار غير العرب التعبير بهذه اللغة لأنّ الإسلام أصبح حضارة مستقرّة لها مساحة خاصة من طرق التفكير والإبداع، فلم تقتصر الكتابة بالعربيّة على المسلمين وحدهم "بل كذلك أتباع الأديان المنزّلة التي يقبلها الإسلام: اليهود والمسيحيّين، ولئن كانت إذن تطوّرات العربيّة بصفتها ناقلة العقيدة مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بتطوّرات الرسالة القرآنيّة؛ فإن هذه العربيّة نفسها بصفتها هذه المرة تعبيرًا عن حضارة سمّيت باسم الإسلام ليست

ملكًا للمسلمين وحدهم مهما كانت أغلبيّتهم"[20] فالأدب العربيّ إذن هو من إبداع العرب وغير العرب، المسلمين وغير المسلمين، إنّه أدب قد انفتح على ثقافات متنوّعة امتزجت كلّها في الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

يتخذ (أندريه ميكال) النظريّة الثقافيّة منطلقًا نظريًّا لمنهجه في كتاب (الأدب العربيّ) إذ قسم الأدب العربيّ إلى أربعة عصور هي: أدب الفاتح، وأدب الالتقاءات، وأدب الذكرى، وأدب النهضة.

يبدأ العصر الأدبيّ الأول (أدب الفاتح) بظهور الإسلام إلى قيام الدولة العباسية، أي فترة انتشار الإسلام واستقرار العرب في عدد من الأقطار المفتوحة، فانتشرت لغتهم وأدبهم من مصب نهر الهند إلى إسبانيا، "وقد عمل هذا الامتداد الجغرافي للساحة العربيّة عمله بثلاث طرق: إنّه بادئ ذي بدء قد نشر في العالم ظاهرة لغة العرب وأدبهم الكبرى والعظمى أعني القرآن، وقد أقرّ كذلك تقاليد سابقة أعني شعر شبه الجزيرة القديم، ومعانيه، وهي لم تحوّر إلّا قليلًا، تسيطر بصفة تكاد تكون كليّة على الإنتاج غير الديني، ثم إنّه هو يفتح الطريق للقاءات المقبلة بين التراث العربيّ وما أُخذ عن الأجانب". [21]

ويبدو جليًّا أنّ الجانب الثقافيّ كان أساس تسميّة الحقبة الأدبيّة الأولى بأدب الفاتح فقد ركّز (ميكال) على جهود العرب في نشر ثقافتهم بالبلدان المفتوحة، فالفاتح المنتصر لا بدّ أن يحيط ثقافته بالحماية خشية أن تذوب في الثقافات الأخرى، بل يبذل جهده لنشرها بين الشعوب الداخلة في الدين الجديد، ويرى ميكال "أنّ الخلافة الأمويّة من حيث الثقافة تتلخّص في كلمات ثلاث: التعريب، والتعرّب، والتأقلم الشاميّ"[22] وقد تمثّل التعريب في اتّخاذ الامبراطوريّة الإسلاميّة وسائل سياسيّة خاصة قاطعة الصلة بالتقاليد الموروثة في البلاد المغزوّة عن بيزنطة وعن فارس ثم امتدّ التعريب إلى مساحات أكبر منتصرًا يومًا فيومًا بالشام ومصر

وسهول العراق وشمال أفريقيا، وتمثّل التعرّب في المفاخرة بالعروبة وقيمها الأصيلة، أمّا التأقلم الشاميّ فتمثّل في التغني بالحياة البدويّة العربيّة حول خلفاء بني أميّة، فأدب الفاتح حسب "ميكال" يمثّل انتشار الثقافة العربيّة بين الشعوب وعناية الخلفاء بها حتى تظلّ ثقافة عربيّة محضة تؤثر ولا تتأثر بما حولها من الثقافات.

وأطلق (ميكال) على العصر الثاني من عصور الأدب العربيّ (أدب الالتقاءات)، وهو عصر الدولة العباسيّة، وفيه ازدهار ثقافيّ عظيم، إذ التقت الثقافة العربية الأصلية مع الثقافات الأخرى، فساهمت الحضارة الإسلاميّة في تجمّع الثقافة العالميّ بذلك العصر، ويؤكّد "ميكال" أنّ "هذا الازدهار الثقافيّ العظيم قد ساعدته عظمة العالم الإسلاميّ السياسيّة والاقتصاديّة، وقد تولّد عنها تنقّلات ومبادلات ماديّة وفكريّة"(23) كما أكّد أنّ ترجمة الآثار اليونانيّة واكتشاف تراث بلاد ما بين النهرين وبلاد الهند، وخاصة بلاد فارس، أتاح أمام العجم فرصة مساهمة كبيرة في ذلك التجمّع للثقافة العالميّة، كما يرى "ميكال" أنّ النثر في ذلك العصر "يستلهم نماذج أجنبيّة سواءً ذلك بالنسبة للروايات اليونانيّة ذات الطابع الترسّليّ الراجع عهدها إلى ما بعد موت الإسكندر والغزو الرومانيّ، مثل رسائل أرسطو إلى الإسكندر وقد عرّبها سالم أبو العلاء، أو أمثال بيدبا وقد نشأت بالهند، ونُقلت إلى فارس، ثم ترجمت إلى العربيّة لتصبح بقلم ابن المقفّع، كتاب كليلة ودمنة".(24)

وأطلق (ميكال) على العصر الثالث من عصور الأدب العربيّ (أدب الذكرى)، ويبدأ من سقوط بغداد، وينتهي بعصر النهضة، وقد أعد (ميكال) سنة 1258هـ "سنة الكارثة العظيمة" وهي السنة التي سقطت فيها بغداد في يد المغول وقتلوا الخليفة العباسيّ وأهله، ويرى أنّ هذا الهجوم المغوليّ الوحشيّ لبغداد "لم يكن قد عمل إلّا على أن يقوي جنسيًّا وثقافيًّا الزحف التركيّ، وأنّه لم يكن قد خنق فارس؛ ذلك المعقل الحصين لثقافة قوميّة كانت قد أغرت فعلًا جميع غزاتها".(25)

ويرى (ميكال) أنّ للزحف المغوليّ نتائج خطيرة على اللغة العربيّة وأدبها إذ "حصل فصل في مستوى بلاد ما بين النهرين وخسرت العروبة جميع مراكزها: المدن، المكتبات التي كانت قدّمت لأدبها البعض من أشهر أعلامها: خوارزم، همذان، أصفهان وغيرها كثير، ولم تثبت اللغة العربيّة هناك إلّا بالنسبة للعادات المتّصلة بالدين، أمّا ما عدا ذلك فقد سيطرت اللغة الفارسيّة، وشهدت حينئذٍ عصرًا ذهبيًّا آخر لأدبها". (26)

وقد أطلق (ميكال) على ذلك العهد "عهد فزع، وعهد مقاومة"(27) وتحدّث عن الاضطراب المتمثل في الصدمة المغولية، وانقراض الخلافة، إذ تحولت الأمة الاسلاميّة إلى جسم بلا رأس. كما يرى أنّ العرب كانوا بالدين ولغته أفضل قسم من الحضارة الإسلامية؛ فقد استطاعوا أن يستيقظوا بصورة عجيبة في ميدان الثقافة، ولهذا لم يكن (ميكال) مع الذين ينظرون إلى ذلك العصر أنّه (عصر الانحطاط)، يقول: " أدب في سبات: هذا ما نسمعه كثيرًا عن هذه الفترة الطويلة الممتدّة من القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن عشر، ولكن أليس المجال هنا لنعيد المكانة لعطف بدونه لا يمكننا أن نفهم الجو الذي عاشت فيه العربيّة آنذاك؟ فقولنا أنّ أدبها باستثناء حالتين هامتين تقريبًا أدب التكرار أو الجمع أو لكي نعبّر كما عبّرنا في بداية هذا الفصل أدب الذكرى ".(28)

ويرى (ميكال) أنّه كان على أدباء ذلك العصر أن يدوّنوا كنوز حضارتهم المهددة بالضياع، ولهذا كان هناك شره في تأليف الموسوعات والمعجمات والتاريخ، وهذا الشره ساهم في صيانة تراثٍ كان قد أُهمل من قبل، فلم يكن هم أدباء تلك الفترة في الإبداع، بل كان همهم في حفظ تراثهم وثقافتهم من الضياع، ولهذا كانت الموسوعيّة نزعة من التفكير تدل على رفض الكتّاب الانغلاق داخل حدود كتاب واحد؛ فظهرت المعجمات الكبرى، وكتب الفهارس والتراجم، والمختصرات ولم يجد

المؤلفون حرجًا في إعادة تأليف أعمال سابقيهم أو حتى نقلها دون تردد، بل إنّ حرص الأدباء على عدم التفريط في أيّ أثرٍ من آثار ثقافتهم أدّى إلى القيام بعمل عظيم ألا وهو تدوين الأدب الشعبيّ مثل قصة عنترة، وتغريبة بني هلال، وقصة سيف بن ذي يزن، وقصة ذي الهمة، وقصة بيبرس، وألف ليلة وليلة، وقصة علي الزئبق، وكلّ ذلك في سبيل الحفاظ على الإرث الثقافي من الضياع.

ولا شكّ في أنّ إطلاق (ميكال) على العصر الثالث (أدب الذكرى) إنّما يرجع إلى اعتماده النظريّة الثقافيّة في تقسيم الحقب الأدبيّة، إذ يؤكّد أنّ هذه الحقبة قد انحصرت في الذكرى والجمع والتكرار وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع العرب جمع كنوز تراثهم المهدد بالضياع، بل أضافوا له كنزا آخر وهو الأدب الشعبيّ، كما كان لحرمان العرب من المشاركة السياسيّة في تلك الفترة نتائج إيجابيّة على الجانب الثقافيّ إذ سخّروا طاقاتهم للحفاظ على ثقافتهم بعد أن فقدوا السيطرة على الحكم، يقول: "إنّ العرب وقد حُرموا من المبادرة السياسيّة قد انطووا انطواءهم حول قلعة ثقافة هي مستودع قيم لا تنكر هذه النظرة ستتبيّن صحتها، إذ بإعادة اكتشاف الكنوز الأدبيّة التي احتفظت بها تلك الأجيال الصابرة الصامدة سيبدأ في القرن XIX ما سيسميه العرب نهضتهم"[(29)].

ويستمر الحضور القويّ للعامل الثقافيّ في تقسيم "ميكال" إذ يُطلق على العصر الرابع: (أدب النهضة)، "وهو بالنسبة إلى البلاد العربيّة عهد الاصطدام مع غرب الإمبرياليّة وأنّ العرب بتأثير ذلك سيكتشفون عالمًا لم يكونوا يفكرون فيه وهو في الآن نفسه مرادف للتقدّم التقنيّ والقوميّة"[(30)]، وقد جعل "ميكال" لهذه الحقبة الأدبيّة مراحل انبعاث كبرى تتمثل في "فاتحة وأربعة فصول، فالفاتحة هي حملة بونابرت الفرنسية على مصر"[(31)] وهنا لا يختلف "ميكال" عن غيره من مؤرّخي الأدب العربيّ إذ جعل الحملة الفرنسيّة على مصر بدايةً لعصر النهضة.

ويدور الفصل الأول مع مُحَمَّد علي (1805-1848) وجهوده في ميدان التربيّة والبعثات الأجنبيّة، "فقد حاول العرب منذ مصر مُحَمَّد علي التعوّد على اختراعات أوروبّا التقنيّة كما تعلّموا معرفة قيمها الثقافيّة عن طريق الترجمات، غير أنّ العرب قد أرادوا كذلك أن يكتشفوا أنفسهم من جديد بطبع الآثار الأساسيّة في الأدب العربيّ القديم، وبما تثيره من دراسات ونقد، فإنّ الانبعاث هنا كما سترى ذلك سيشمل في الآن نفسه قيم العقيدة وقيم الثقافة غير الدينيّة".(32)

وتناول الفصل الثاني فترة الأربعينات من القرن التاسع عشر، وذلك في لبنان المتفتح على الغرب لما فيه من طوائف نصرانيّة، وكذلك دور السياسة المتّبعة هناك من قِبل إبراهيم بن مُحَمَّد علي حاكم الشام (1832-1840)، فقد برز دور البعثات التنصيريّة و"أُنشئت الجامعة الأمريكيّة، وجامعة القديس يوسف، ومدرسة قوميّة عليا"(33)، وظهرت حركة تعريب على يد جملة من الكتّاب والأدباء.

أمّا الفصل الثالث فهو أقصر الفصول إذ ينحصر في فترة ما بين الحربين العالميّتين، ويرى "ميكال" أنّ "الاستقلال وقد حصل مجيئه البطيء في المكان وفي عقول الناس، في الفترة السابقة وقد منحه رسميًّا المحتل السابق، أمّا في الواقع فالأجنبيّ الوحيد الذي تم التخلص منه فهو التركيّ، أما الأوروبيّ فقد بقي"(34)، وفي الفصل الرابع يتناول أزمة الحريّات الشكليّة، فالاستقلال التام لم يتحقق بعد، هذا يؤكّد ابتعاد "ميكال" عن التحقيب السياسيّ للأدب العربيّ إذ أنّه لا يُعدّ التحرّر السياسيّ استقلالًا، بل يلّح على استقلال الجانبين: الثقافيّ والاقتصاديّ في قوله: "الاستقلال التام ليس فحسب التحرّر السياسيّ، فهو بصورة أعمق ما يجعل منه شيئًا آخر غير خدعة، أعني امتلاك(35) كليًّا لإمكانيّاته الخاصّة الاقتصاديّة والثقافيّة".(36)

ويمكننا الجزم بأنّ النظريّة الثقافيّة تبدو أكثر وضوحًا في التحقيب الرباعيّ الذي اتبعه "أندريه ميكال" مقارنة بالتطبيق الجزئيّ في عمل كلٍّ من طه حسين

وأحمد أمين، إذ اتّخذ "ميكال" التحولات الثقافيّة أساسًا لبداية الحقبة الأدبيّة ونهايتها، وقد خالف بذلك التحقيب الخماسيّ الذي سار عليه أغلب المؤرّخين الذين اتّخذوا التقلّبات السياسيّة أساسًا لتقسيم الحقب الأدبيّة، ولا شكّ في أنّ تطبيق النظريّة الثقافيّة يتيح لمؤرّخ الأدب الوصول إلى نتائج لا يمكنه الوصول إليها بتطبيق النظريّات الأخرى.

إنّ اعتماد التحقيب الثقافيّ في التأريخ للأدب العربيّ قد يساعد في حلّ إشكاليّات التحقيب السياسيّ، ويرى الطاهر أحمد مكيّ أنّ التحقيب السياسيّ للأدب يُبسّط الأمور المعقّدة أكثر ممّا يجب، وأنّ الاعتماد على التاريخ وحده في تمييز ملامح الأدب ضار ومضلل، ولهذا يرجّح تحقيب الأدب حسب التيّارات الفكريّة إذ يقول: "ربّما كان من الأوفق أن نردّه (أي الأدب) إلى التيّارات الفكريّة التي غلبت في كلّ عصر، فهناك عصر سيادة المعتزلة فكرًا ومذهبًا، وعصر الحركة المعاكسة لهم، وعصر الموسوعات والجمود وغيرها"[(37)] إلّا أنّ ذلك لا يعني أنّ التحقيب على وفق العامل الثقافيّ هو التحقيب الأمثل لتأريخ الأدب العربيّ؛ فلهذا النمط إشكاليّاته كغيره من أنماط التحقيب، وهذا لا يقلّل من أهميّة النظريّة الثقافيّة في فتح آفاق واسعة حين تدرس الجوانب العقليّة، إلّا أنّها تواجه الكثير من الإشكاليّات حين تتصدّى لدراسة الجوانب الفنيّة، وتأريخ الإبداع الأدبيّ.

## المحور الرابع: إشكاليّات تطبيق منهج (أندريه ميكال) في تأريخه للأدب العربي:

من إشكاليّات تطبيق منهج (أندريه ميكال) في التأريخ للأدب العربيّ البحث عن حقب أدبيّة قائمة على أساس ثقافيّ إذ إنّ الحقب الثقافيّة ليست قوالب جاهزة كما هو الشأن في التحقيب السياسي والتحقيب الثلاثي، وهذا يعني أنّ تحديد بدايات الحقب ونهاياتها ليس أمرًا سهلًا، بل هو في غاية التعقيد، فإذا استطاع المؤرخون تحديد البداية الزمنيّة لاختلاط العرب بكلّ من الفرس، واليونان، والترك،

والأوروبيّين؛ فليس من السهولة تحديد بدايةٍ دقيقة لتأثر العرب بثقافات تلك الأمم، إذ إنّ بداية الاتصال لا تعني بأيّة حال بداية التأثّر، ويبدو الأمر أكثر تعقيدًا عند محاولة تحديد البداية الفعليّة لظهور أثر تلك الثقافات في الإنتاج الفكريّ لأبناء الأمّة العربيّة، ولا شكّ في أنّ تأثّر الأمّة بثقافات الأمم الأخرى أمرٌ مسلّم به، إلّا أنّ الإشكاليّة تكمن في التحديد الدقيق لبداية ذلك الأثر الثقافيّ ونهايته، حتى يمكن إطلاق مصطلح "حقبة ثقافيّة" على الامتداد الزمنيّ الواقع بين بداية ظهور الأثر الثقافيّ ونهايته، ومن ثمّ ظهور أثرٍ ثقافيّ جديد يدلّ على بداية حقبة ثقافيّة جديدة.

إنّ تحديد عدد الحقب الثقافيّة في تاريخ الأمّة العربيّة أمرٌ في غاية الصعوبة؛ لكثرة الثقافات التي اختلط بها العرب من ناحية، ولتفاوت درجة تأثير كلّ ثقافة من ناحية أخرى، وتفاوت التأثير مردّه تفاوت إسهام تلك الثقافة في الحضارة الإنسانيّة، وتفاوت انتشارها في الأقاليم العربيّة، فظهور أثر ثقافة ما في شيء من الإنتاج العربيّ لا يمثّل بالضرورة حقبة ثقافيّة جديدة، إذ لا بدّ من ظهور قوّة تأثيريّة لتلك الثقافة في مسيرة الأدب العربيّ.

وكما أنّ المؤرّخين اختلفوا في عدد الحقب الأدبيّة على وفق التحقيب السياسيّ؛ فكذلك اختلفوا في عدد الحقب الثقافيّة التي مرّت بها الأمّة العربيّة، فهي عند الفاخوري ثلاث حقب، وعند " أندريه ميكال" أربع حقب، وعند "بلاشير" خمس حقب، وقد أكّد "الفاخوريّ" أن الأدب العربيّ "تطوّر متقلّبًا مع التاريخ من حالٍ إلى حال؛ وكان التطوّر عادةً وليد احتكاك العرب بعضهم ببعض، أو احتكاكهم بغيرهم من الشعوب والحضارات والثقافات؛ فكان الاحتكاك يولّد عادةً نهضةً أدبيّةً ذات نزعة خاصة"(38) ولا يمكن التسليم بأنّ النهضة الأدبيّة تتولّد من أيّ احتكاك كان، فأيّ نهضة أدبيّة تولّدت من احتكاك العرب بالمغول، أو بالأتراك؟! إلّا أنّ "الفاخوريّ" يقسّم تاريخ الأدب العربيّ حسب هذا التصوّر إلى

ثلاث نهضات ثقافيّة نتجت عن احتكاك العرب ببعضهم البعض أو احتكاكهم بغيرهم من الأمم.

إنّ الصعوبة التي تعتري بناء الحقب الثقافيّة جعلت المؤرّخين ينصرفون عن هذا النوع من التحقيب ولهذا لا يوجد –حسب اطّلاعنا– من مؤرخي الأدب العربيّ سوى مؤرخين اثنين أقدما على بناء تحقيب ثقافيّ للأدب العربيّ تنظيرًا وتطبيقًا، هما المستشرقان الفرنسيّان "بلاشير" و"أندريه ميكال"، فالأول قسّم الأدب العربيّ إلى خمس حقبٍ ثقافيّة، والآخر قسّمه إلى أربع حقب ثقافيّة، وعلى الرغم من أنّهما يشتركان في بناء الحقب على الأساس الثقافيّ فإنّهما يختلفان في طريقة بناء الحقب ولهذا جاءت الحقب عند كلّ منهما مختلفةً في عددها وفي امتدادها الزمانيّ وفي مسمياتها.

وتبدو الحقب الثقافيّة أكثر وضوحًا عند "أندريه ميكال" إذ قسّم الأدب العربيّ إلى أربعة عصورٍ ثقافيّة أطلق على الأول "أدب الفاتح"، ويبدأ بظهور الإسلام إلى قيام الدولة العباسية، أي فترة انتشار الإسلام واستقرار العرب في عدد من الأقطار المفتوحة، أمّا العصر الثاني فقد أطلق عليه "أدب الالتقاءات"، وهو عصر الدولة العباسيّة، وفيه ازدهار ثقافيّ عظيم، إذ التقت الثقافة العربية الأصليّة مع الثقافات الأخرى، فأسهمت الحضارة الإسلاميّة في تجمّع الثقافة العالميّ بذلك العصر، وأطلق على العصر الثالث "أدب الذكرى"، ويبدأ من سقوط بغداد، وينتهي بعصر النهضة، وفي هذا العصر لم يكن هم الأدباء في الإبداع، بل كان همهم في حفظ تراثهم وثقافتهم من الضياع، ولهذا كانت الموسوعيّة نزعة من التفكير تدل على رفض الكتّاب الانغلاق داخل حدود كتاب واحد، يُطلق على العصر الأخير "أدب النهضة"، "وهو بالنسبة إلى البلاد العربيّة عهد الاصطدام مع غرب الإمبرياليّة وأنّ العرب بتأثير ذلك سيكتشفون عالمًا لم يكونوا يفكرون فيه.

ومن إشكاليّات تطبيق المنهج الذي اتبعه (أندريه ميكال) اضطراب بناء الحقب الأدبيّة القائمة على الأساس الثقافي ويمكن أن نلمس ذلك من خلال الجدول الآتي الذي يوضح تحقيب (أندريه ميكال) للأدب العربيّ:

| م | اسم العصر | بدايته | نهايته | الملاحظات |
|---|---|---|---|---|
| 1 | أدب الفاتح | ظهور الإسلام | قيام الدولة العبّاسيّة | لا يؤرّخ للأدب العربيّ قبل ظهور الإسلام |
| 2 | أدب الالتقاءات | قيام الدولة العبّاسيّة | سقوط بغداد | يمتدّ على مدار خمسة قرون فيه التقت الثقافة العربيّة بثقافات متنوّعة. |
| 3 | أدب الذكرى | من سقوط بغداد | بداية عصر النهضة | انتقد تسمية هذه الحقبة بعصر "الانحطاط" وأعدّه عصر "الفزع والمقاومة" |
| 4 | أدب النهضة | الحملة الفرنسيّة على مصر | ما يزال مستمرًّا | لهذه الحقبة الأدبيّة مراحل انبعاث كبرى تتمثل في "فاتحة وأربعة فصول |

تبدأ الحقبة الأولى عند (ميكال) بعصر "أدب الفاتح" وهذ العصر يبدأ بظهور الإسلام إلى قيام الدولة العباسيّة، وقد التزم بما توحي به تسمية العصر، فبدأ تأريخه للأدب العربيّ بظهور القرآن الكريم مؤكّدًا أنّ القرآن الكريم "هو أثر الآداب العربيّة الأول، وصرحها ومرآتها المثلى، فليس إلّا من العدل أن نبدأ به"[39] ولا شكّ في أنّ دلالة تسمية هذه الحقبة بـ "أدب الفاتح" توافق الامتداد الزمنيّ الذي يدخل في إطارها، إلّا أنّ إشكاليّة تحقيب "ميكال" أنّه أهمل تأريخ الأدب الذي أنتجته الأمّة العربيّة قبل الإسلام، وبهذا التصوّر للحقب الأدبيّة يجعل بداية الأدب العربيّ مع ظهور الإسلام، وهذا التصوّر يخالف واقع الأدب العربيّ وما أجمعت عليه أغلب الدراسات العربيّة.

وقد أطلق (ميكال) على الحقبة الأدبيّة الثانية "أدب الالتقاءات" ويمثل العصر العباسي وقد جعله حقبة واحدة، ويمثّل عنده ازدهارًا ثقافيًّا عظيمًا[40]، ولا شكّ في أنّ تسمية "ميكال" لتلك الحقبة بـ "أدب الالتقاءات" تحمل دلالة على طبيعة العصر، إذ إنّ الثقافة العربيّة التقت بثقافات مختلفة فاختلطت بها فصارت الحضارة العربيّة الإسلاميّة في تلك الحقبة تجمّعًا كبيرًا للثقافة العالميّة،[41] إلّا أن دراسة تلك الحقبة الزمنية الممتدة لخمسة قرون على أنّها حقبة أدبيّة واحدة تشترك في الخصائص والسمات ضربٌ من المجازفة يخاف واقع الأدب العصريّ في ذلك الامتداد الزمنيّ الداخل ضمن تلك الحقبة الأدبيّة.

وأطلق (ميكال) على الحقبة الأدبية الثالثة اسم (أدب الذكرى)، ويحسب له ابتعاده عن تسمية تلك الحقبة بعصر (الانحطاط)، ويرى "ميكال" أنّ (أدب الذكرى) هو "عهد الفزع وعهد المقاومة"[42] فبعد سقوط بغداد في أيدي المغول فزع العرب وقاوموا من أجل الحفاظ على إرثهم الثقافيّ من الضياع، فلم يكن همّ أدباء تلك الفترة في الإبداع، بل كان همهم في حفظ تراثهم وثقافتهم ولهذا كانت الموسوعيّة نزعة من التفكير تدل على رفض الكتّاب الانغلاق داخل حدود كتاب واحد؛ فظهرت المعجمات الكبرى، وكتب الفهارس والتراجم، والمختصرات ولم يجد المؤلفون حرجًا في إعادة تأليف أعمال سابقيهم أو حتى نقلها دون تردد، بل إنّ حرصهم على عدم التفريط في أيّ أثرٍ من آثار ثقافتهم أدّى إلى توثيقهم للتراث الجمعيّ الشفويّ.

لقد رفض "ميكال" إطلاق (عصر الانحطاط)، على هذا الامتداد الزمنيّ من مسيرة الأدب العربيّ لأنّ الجمع والتكرار في تلك المرحلة أمرٌ لا بدّ منه للحفاظ على الإرث الثقافيّ، يقول: "أدب في سبات: هذا ما نسمعه كثيرًا عن هذه الفترة الطويلة الممتدّة من القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن عشر، ولكن أليس المجال هنا لنعيد

المكانة لعطف بدونه لا يمكننا أن نفهم الجو الذي عاشت فيه العربيّة آنذاك؟ فقولنا أنّ أدبها باستثناء حالتين هامتين تقريبًا أدب التكرار أو الجمع أو لكي نعبّر كما عبّرنا في بداية هذا الفصل أدب الذكرى ".(43)

ولا شكّ في أنّه يُحسب لـ (ميكال) رفضه إطلاق (أدب الانحطاط) على تلك الفترة، إلّا أنّ لفظة (الذكرى) لا تحمل أيّ إشارة للدلالة على النشاط الأدبيّ للحضارة العربيّة الإسلاميّة على مدى أكثر من خمسة قرون؛ بل إنّ اللفظة أقرب إلى الدلالة على بعض الأجناس الأدبيّة مثل السيرة، والمذكرات، والحكايات، والقصص، والروايات، وأدب الرحلات، كما أنّ الحكم على أدب ذلك العصر كله بأنّه (أدب ذكرى) فيه الكثير من الإجحاف، فلا يمكن التسليم بأنّ كلّ ما أنتج في ذلك العصر هو جمع وتكرار ولا مجال للإبداع فيه، فأغلب ما أورده (ميكال) من نماذج لتبرير المصطلح كانت من الكتابة النثريّة، ولم يُشر إلى شيءٍ من النماذج الشعريّة، كما أنّه أرّخ الأدب العربيّ باعتباره حقبة ثقافيّة واحدة في الشرق والغرب، فإن كان أدب المشرق كلّه أدب ذكرى؛ فلا ينطبق ذلك على الأدب العربيّ في الأندلس.

أما الحقبة الأدبيّة الرابعة عند (ميكال) فيطلق عليها (أدب النهضة)، وتبدأ مع الحملة الفرنسية على مصر عام (1797) وما يزال هذا العصر عند (ميكال) مستمرًّا، ولا شكّ في أنّ تسمية (أدب النهضة) تحمل دلالة النهضة الثقافيّة والعلميّة والأدبيّة، كما توحي بالمراحل الانتقاليّة التي لا تتحقّق النهضة إلّا بها ومنها مرحلة "الخروج من العزلة" وقد أدرك (ميكال) هذه المراحل فجعل لهذه الحقبة الأدبيّة مراحل انبعاث كبرى تتمثل في فاتحة وأربعة فصول.(44)

إنّ محاولات التحقيب الثقافيّ للأدب العربيّ تكشف أنّ أصحاب تبك المحاولات لم يتّفقوا في عدد الحقب ولا في مسمّياتها ولا في امتدادها الزمنيّ، فتحقيب (ميكال) يختلف عن تحقيب (بلاشير) وعن التصوّر التنظيري الي وضع (الفاخوري)،

ولم يشر (ميكال) عند تحديد الحقب الأدبية الثقافيّة إلى ثقافة محدّدة على أنها كانت سببًا لتحوّل مسيرة الأدب العربيّ من حال إلى حال، إلّا في الحقبة الأخيرة التي ركّز فيها على تأثّر المسيرة الأدبيّة بالثقافة الغربيّة، أمّا في باقي الحقب فإنّه يشير إلى اختلاط العرب بعدّة ثقافات كما هو الشأن في (أدب الالتقاءات) ولهذا لا نستطيع أن نتبيّن في تحقيبه الدور الخاص الذي أسهمت به كلّ ثقافة على حدة، إذ إنّه يتحدّث عن أثر امتزاج عدّة ثقافات لا عن تأثير ثقافة بعينها في مسيرة الأدب العربيّ.

**الخاتمة:**

إنّ التأريخ للأدب على وفق التحقيب الثقافيّ لم ينل حظًا من التطبيق عند المؤرّخين العرب وإنّما اقتصرت على محاولتين لمستشرقين هما: (بلاشير) و(ميكال)، وتسير الحقب الثقافيّة في محاولة (ميكال) على وفق خطيّة زمنيّة تخالف طبيعة هذا النمط التحقيبيّ، إذ إن تنظير هذا النمط التحقيبيّ يفرض تمرّدًا على التسلسل الزمنيّ الذي يعدّ الركيزة الأساسيّة في التاريخ، فقد ينتسب أدباء من عصورٍ متباينة زمنيًّا إلى حقبة ثقافيّة واحدة، ولا شكّ في أنّ المتلقي لا يقبل ـ غالبًا ـ بتصنيف شعراء العصور السحيقة ضمن شعراء الحداثة ثقافيًّا، ولا بتصنيف الشعراء المعاصرين ضمن شعراء الطبع ثقافيًّا، ولهذا ظلت الحقب تسير على وفق تسلسل تاريخيّ يراعي الخطيّة الزمنيّة ويخالف الجانب التنظيريّ الذي يقتضيه التحقيب الثقافيّ.

لم يحدّد (ميكال) لكلّ حقبة من الحقب ثقافةً بعينها تسيطر على الإنتاج الأدبيّ، بل تحدّث عن مزيجٍ من الثقافات في كلّ حقبة، فلا يتمّ الانتقال من حقبة إلى أخرى على وفق معايير ثقافيّة واضحة، بل يتم الانتقال بقفزات مفاجئة على وفق ما تقتضيه الخطيّة الزمنيّة، ولم يستطع أصحاب هذا النمط التحقيبيّ تجاوز إشكاليّة المركز والأطراف، فإذا كان اهتمام أصحاب التحقيب السياسيّ بالعواصم السياسيّة باعتبارها مراكز القيادة، فإنّ هذه العواصم السياسيّة نفسها كانت مركز

اهتمام أصحاب التحقيب الثقافيّ لا باعتبارها مركزًا سياسيًّا، بل باعتبارها مركزًا ثقافيًّا، ولهذا بقي حضور أدب الأطراف في هذا النمط التحقيبيّ هامشيًّا شأنه شأن التحقيب السياسيّ.

إنّ اعتماد التحقيب الثقافيّ في تأريخ الأدب العربيّ لا يخلو من مجازفة في إطلاق أحكام عامة على أدباء كلّ حقبة من الحقب الثقافيّة، إذ إن دخول ثقافة ما إلى الحضارة الإسلاميّة لا يعني تأثّر أدباء كلّ الأقاليم بتلك الثقافة، فلا شكّ في أنّ تأثير تلك الثقافة له حدوده من جغرافيّة الحضارة الإسلاميّة الممتدّة من الخليج إلى المحيط، كما أنّ طبيعة هذا النمط التحقيبيّ تفرض اهتمامًا أكبر بتتبّع الجوانب العقليّة والفكريّة في الأدب، على حساب الجوانب الأدبيّة والفنيّة.

إنّ اعتماد التحقيب الثقافيّ في تأريخ الأدب قد يقود المؤرّخ إلى المبالغة في إعطاء تاريخ الفلسفة والفكر العام قيمة كبيرة في تفسير النصوص الشعريّة، فيولي اهتمامًا كبيرًا بالقضايا المتعلّقة بالتاريخ الفكريّ، على حساب الجوانب الفنيّة في المسيرة الأدبيّة، وهذا ما يظهر جليًّا عند "أندريه ميكال" إذ يصبّ اهتمامه على تتبّع الأفكار والفلسفات الوافدة إلى الأدب العربيّ من ثقافات أخرى، وهذا الذي جعل حضور الجوانب الفنيّة ضئيلًا في كتابه.

لا نلمس عند و"ميكال" ظاهرة تصنيف الأدباء في عصرٍ ثقافيّ مختلف عن عصرهم الزمنيّ؛ لأنّ الحقب الثقافيّة عنده تسير على وفق خطيّة زمنيّة شأنها شأن التحقيب السياسيّ. فجميع الأدباء الذين يعيشون في امتدادٍ زمنيّ واحد ينتمون إلى حقبة ثقافيّة واحدة، إلّا أنّ هذا التصوّر للحقب الثقافيّة يُبسّط ما هو معقدٌ في حقيقته، إذ يصوّر الحقب الثقافيّة كأنها قوالب متجاورة لا يربط بينها رابط، فبانتهاء حقبة ثقافيّة تطوى صفحة كلّ الأدباء والكتّاب الذين حملوا سمات تلك الحقبة، لتبدأ حقبة ثقافيّة جديدة مع أدباء وكتّاب آخرين يحملون سمات الحقبة الجديدة.

ولا شكّ في أنّ الواقع يخالف ذلك، فانتهاء حقبة "أدب الفاتح" عند "ميكال" لا يعني أنّ الإنتاج الأدبيّ صار جميعه يحمل سمات حقبة "أدب الالتقاءات" وانتهاء هذه الحقبة لا يعني أنّ الإنتاج الأدبيّ صار جميعه يحمل سمات حقبة "أدب الذكرى" فالسمات الثقافيّة لا تطوى بين عشيّة وضحاها، فالحقب الثقافيّة لا تسير على وفق الخطيّة الزمنيّة التي قدمها "ميكال"، فمعيار تصنيف الأدباء يكون حسب انتمائهم الثقافيّ الذي يكشف عنه إنتاجهم الأدبيّ، ولهذا قد تتباين عصور الأدباء زمنيًّا وتتفق ثقافيًّا، وهذا الجانب مفقود في الحقب الأدبيّة التي بناها "ميكال".

**الهوامش:**

1) أحمد بو حسن، ***"مفهوم تاريخ الأدب بين التصوّر العربي القديم والتصوّر الأوربي الحديث"***، ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 76، بعنوان: "انتقال النظريات والمفاهيم" تنسيق: مُحَمَّد مفتاح وأحمد بو حسن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1999، ص37.

2) كارل بروكلمان، ***تاريخ الأدب العربي***، ترجمة: عبد الحليم النجّار، دار المعارف، القاهرة، ط5، ج1، ص32.

3) نفسه ص32.

4) نفسه ص32.

5) ريجيس بلاشير (1973.1900) مستشرق فرنسي من أهم مؤلفاته ترجمة القرآن الكريم ودراسة بعنوان (أبو الطيب المتنبي دراسة في التاريخ الأدبي) وكتاب (تاريخ الأدب العربي من البداية حتى نهاية القرن الخامس عشر) أنجز منه ثلاثة مجلدات غطت حتى سنة 125هـ قبل أن تدركه المنيّة، وترجم هذا الكتاب على يد د.براهيم الكيلاني وصدر عن وزارة الثقافة بدمشق سنة 1974.

6)

7) بن وناس، رفيق، و حيزوم، صالح، والعشعاش، الطيّب، بيان المعربين، ضمن كتاب الأدب العربي، أندريه ميكال، الشركة التونسية لفنون الرسم، ط1، 1980م، ص3.

8) أندريه ميكال، ***الأدب العربي***، تعريب: رفيق بن ونّاس وصالح حيزم والطيّب عشاش، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، ط1، 1980، ص 5.

9) نفسه ص 5.

10) نفسه ص 5.

11) شكري فيصل، مناهج الدراسة الأدبيّة في الأدب العربي، بالعرض والنقد والاقتراح، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، مارس 1982م، ص 100.

12) نفسه، ص 100.

13) نفسه، ص 102، 103.

14) نفسه، ص 103

15) نفسه، ص 104

16) نفسه، ص 104

17) نفسه، ص 122

18) التركيب غير مترابط، إلّا أنّنا آثرنا إيراد النص كما ورد في الترجمة.

19) أندري ميكال، ***الأدب العربي***، تعريب: رفيق بن وناس وصالح حيزم والطيب عشاش، الشركة التونسية لفنون الرسم، ط1، 1980، ص6.

20) نفسه، ص 7

21) نفسه، ص 9

22) نفسه، ص 28

23) نفسه، ص 47

24) نفسه، ص 67

25) نفسه، ص 87

26) نفسه، ص 87.

27) نفسه، ص 88

28) نفسه، ص 88

29) نفسه، ص 98

30) نفسه، ص 99

31) نفسه، ص 100

32) نفسه، ص 100

33) نفسه، ص 101

34) نفسه، ص 102، 103

35) هكذا ورد التركيب في الترجمة، وربّما من الأصوب أن يقول: (امتلاكه) أو (امتلاكا كليًّا)

36) أندري ميكال، ***الأدب العربي***، ص 103

37) الطاهر أحمد مكيّ، الشعر العربي المعاصر، روائعه ومدخل لقراءته، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1990م.ص34

38) 18- حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي، دار بيروت الكبرى للنشر، بيروت، ط1، 2014، ص 41

39) أندري ميكال، ***الأدب العربي***، ص 10

40) نفسه، ص 47

41) نفسه، ص 47

42) نفسه، ص 88

43) نفسه، ص 88

44) ميكال، ص 99. 127

**المصادر والمراجع:**

1) كارل ب. (1977). *تاريخ الأدب العربي* (ط5). القاهرة : دار المفارف.

2) بلاشير د. (1984). *تاريخ الأدب العربي*. دمشق: دار الفكر.

3) فيصل ش. (1982). *مناهج الدراسة الأدبيّة في الأدب العربي، بالعرض والنقد والاقتراح*. بيروت: دار الملايين للنشر.

4) ميكال أ. (1980). *الأدب العربي*. تونس: الشركة التونسية لفنون الرسم.

5) مكي ل. أ. (1990). *الشعر العربي المعاصر، روائعه ومدخل لقراءته*. القاهرة: دار المعارف.

6) موريه س. (2012). *الشعر العربي الحديث (1800.1970) تطور أشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي*، القاهرة: دار غريب.
7) بوحسن أ. (1999). مفهوم تاريخ الأدب بين التصوّر العربي القديم والتصوّر الأوربي الحديث. في *سلسلة ندوات ومناظرات رقم 76 : م 76 . انتقال النظريات والمفاهيم*. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية . مطبعة النجاح الجديد.
8) الفاخوري ح. (2004). *تاريخ الأدب العربي*. بيروت: بيروت الكبرى للنشر.

**Sources and references:**

1) Carl B. (1977). History of Arabic literature (5th edition). Cairo: Dar Al-Mafarf.
2) Blacher D. (1984). History of Arabic literature. Damascus: Dar Al-Fikr.
3) Faisal Sh. (1982). Methods of literary study in Arabic literature, with presentation, criticism and suggestion. Beirut: Millions Publishing House.
4) Mikal A. (1980). Arabic literature. Tunisia: Tunisian Company for Graphic Arts.
5) Makki's. a. (1990). Contemporary Arabic poetry, its masterpieces and an introduction to reading it. Cairo: Dar al-Maarif.
6) Moreh S. (2012). Modern Arabic Poetry (1800-1970) The evolution of its forms and themes under the influence of Western literature. Cairo: Dar Gharib.
7) Buhassan A. (1999). The concept of the history of literature between the ancient Arab perception and the modern European perception. In a series of seminars and debates No. 76: P. 76. Transmission of theories and concepts. Rabat: Publications of the Faculty of Arts and Humanities - New Najah Press.
8) Al-Fakhoury H. (2004). History of Arabic literature. Beirut: Greater Beirut Publishing.